بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ٦ (ربيع وصيف ١٤٣٣ هـ. ق/ ١٣٩١ هـ. ش)، ص ٧٥ ـ ٨٥

عناصر قصة موسى والخضر عليهما السلام
(الشخصية والزمان نموذجاً)[1]

سيدرضا سليمانزاده نجفي ❖
عظيم طهماسبي ❖❖

الملخص

تتألف القصة من عناصر مختلفة، منها: الشخصيّة والزمن. ويتمّ تكوين القصة من طبائع الأشخاص والشخصيات الذين تضمّهم، ولا يمكن تصور قصة بدون شخصيات. كذلك لابدّ من وجود عنصر الزمن في القصة لكي تقدّم نفسها من خلاله، فلكلٍّ قصة بداية ونهاية.

تبحث هذه الدراسة عن عناصر قصة موسى والخضر عليهما السلام متناولةً الشخصيات والزمن نموذجاً، وتتطرق إلى القصة من منظور قرآني؛ ثم تتجه نحو تقسيم شخصيات القصة والتعرف عليها، وتلقي الضوء على سماتها مستمدة من نظريات القصّة المعاصرة.

تبحث المقالة عن علاقات الشخصيات معاً واتصال مصائر بعضها ببعض ثمّ يتناول عنصر الزمن في القصة وتعثر على توظيف الزمان ودلالته من خلال التعمق في المفردات والآيات وأساليبها التعبيرية.

المفردات الرئيسية: القصة، موسى، الخضر، الشخصية، الزمان.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی

المقدمة

القصة ـ في أوسع دلالاتها ـ عمل فنيّ قائم على بناءٍ هندسي خاص، يصطنع كاتبها واحداً أو جملة من الأحداث والمواقف والأبطال والبيئات عبر لغة تعتمد (السرد) أو (الحوار) أو كليهما. وتتضمّن هدفاً فكرياً محدداً يخضع الكاتب عناصره إلى ما هو ممكن ومحتمل من السلوك، وذلك وفق عملية اصطفاء خاصة للعناصر المذكورة (البستاني، ١٤٠٨هـ، ص ٧).

ولا شكّ أن القَصص القرآني يختلف اختلافاً بيّناً عن سائر أنواع القصص التي يحوكها البشر، ليس لاختلاف المصدر، وهو المنشئ أو المبدع فقط، ولكن لاختلاف ما بين هذا وذاك في المقاصد والغايات، والوسائل والأدوات؛ فللقصّة القرآنية مقاصدها السامية وغاياتها التي تتفق والأغراضَ الدينية التي تدور في فلكها (إبراهيم، ٢٠٠٨م، ص ٨).

---

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٩/١٢/٢١هـ. ش (٢٠١١/٣/١٢م)؛ تاريخ القبول: ١٣٩١/٦/٢٥هـ. ش (٢٠١٢/٩/١٥م).

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان.
❖❖ طالب الدكتوراة في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان.

تكمن أغراض كثيرة وراء قصة موسى والخضر عليهما السلام ، وشأن هذه القصة كشأن القِصص القرآنية الأخرى في الاهتمام بالمعاني والدقائق المعرفية والمقاصد الدينية.

هناك في القصة شخصيات متعددة موزّعة بين الأصلية والفرعية والإيجابية والسلبية. والبطل الرئيسي في القصة هو الخضر عليه السلام بما عنده من سماتٍ خاصة تميّزها عن الآخرين، ولها تأثير بالغ في القصة، ولم يذكر اسمه في القصة.

البطل الثاني هو موسى عليه السلام يؤدّي دوره كشخصية إنسانية مألوفة لم يطّلع عمّا وراء الأحداث، ولا يدري سبب التصرفات الغريبة التي يقوم الخضر عليه السلام بها. فهناك مفارقة بين نظرتهما إلى الكون، وهذا الأمر يضفي على القصة جوّاً تقابلياً لا يزال مسيطراً عليها حتى يلمّ موسى عليه السلام بتأويل الأحداث.

إن عنصر الزمن في القصة لا يقتصر على تاريخ خاص، بل يتجاوز التاريخ المحدّد، فيرتكز على دلالات تتعلّق بشأن الأحداث والشخصيات في القصة.

اعتماداً على ما ذكرنا، تتطرّق المقالة إلى سبر أغوار الشخصيات والزمن في القصة، وتجعل اهتمامها بالموضوع ضمن دائرته، عسى أن يعثر على بعض النتائج.

وهناك دراسات حول قصة موسى والخضر عليهما السلام ، وأخصّ بالذكر كتاب *دراسات فنية في قصص القرآن* لمحمود البستاني، بيد أن هذا الكتاب إضافة إلى قصتنا هذه يضمّ كثيراً من القصص القرآنية، ولا يلتزم ببحث عن عناصر القصة وتمحيصها بدقة، بل يتطرق إلى الكثير من القضايا المرتبطة بأدبية القصة ؛ واستمددنا منه ما يعنينا.

المعني اللغوي لمصطلح القصّة ومفهومها الاصطلاحي

«**القصة : الخبر، وهو القصص ؛ وقصّ على خبره يَقُصُّه قصّاً وقصصاً : أورده ؛ والقصص : الخبر المقصوص ؛ والقِصص ـ بكسر القاف ـ جمع القصة التي تكتب**» (ابن منظور، ١٩٩٢م، مدخل «قصص»).

«**القصة فنّ قوليّ دراميّ يسعى إلى خلق عالم إبداعي مواز في علاقاته للعالم الواقعي الذي يعيشه القَصّاص، من خلال تجارب الفكر أو تجارب العاطفة أو تجارب الخيال**» (مطاوع، ٢٠٠٦م، ص ٢٣).

و كذلك تطلق القصة على آثار تُركّز فيها على الحوادث التي كانت غير مألوفة وخارقةً للعادة، ولايبلغ فيها الاهتمام بتربية الإنسان وإخباره مبلغ الحوادث (ميرصادقي، ١٣٨٦هـ. ش، ص ٤٤).

القصة في القرآن ومفهومها

القصة في القرآن ليست عملاً فنّيّاً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـ كما هو الشأن في القصة الفنّيّة الحُرّة ـ إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقصّة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها (قطب، د ت، ص ١١٧).

ولا تنطبق شروط القصّة بمعناها الاصطلاحي على القصّة القرآنية ؛ لأنها أقرب إلى الأقصوصة، واقتصارها في أكثر الأحيان على ذكر حلقة منها أو أكثر، وعدم استيفائها كل عناصر مجتمعة (نقرة، ١٩٧٤، ص ٨٦).

و مفهوم القصة في القرآن يدور حول الإخبار بالواقع الحقيقي المجرد، وتتبّع آثار الحقيقة، والأخبار الماضية، وسردها بصدق وموضوعية، دون إضفاء الخيال، وتأليف الحكايات، وتلفيق الوقائع، وانتحال الأخبار المكذوبة والمتوهمة تحت اسم الفن والأداء الفني (إبراهيم، ٢٠٠٨م، ص ٩ـ١٠).

أضواء على قصة موسى وخضر عليهما السلام

لم يُرد القرآن ذكر الخضر إلاّ ما في قصّة رحلة موسى عليه السلام إلى مجمع البحرين، وما ذكر شيئاً من جوامع أوصافه إلاّ ما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْمًا﴾ (الكهف ١٨: ٦٥).

و الّذي يتحصّل من الروايات النبوية الواردة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الخضر كان نبيّاً مرسلاً بعثه الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه. وكانت آيته أنه لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلاّ أزهرت خضراءَ. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّما سُمّي خضراً، لأنّه صلّى على فروة بيضاء، فاهتزّت خضراء. ويظهر من أخبار متفرّقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه حيّ لم يمت بعدُ (الطباطبائي، ١٩٧٢م، ص ٣٥٢)... **وفي عدة روايات من طرق الفريقين أنّه شرب من عين الحياة؛ ولاينصّ عليها القرآن** (المصدر نفسه، ص ٣٥٣).

و يستفاد من الروايات المختلفة أن سبب لقاء موسى بالخضر هو أن رجلاً من بني إسرائيل سأل موسى عليه السلام: هل يوجد من هو أعلم منك؟ فأجاب بالنفي. فأمر الله أن يذهب إلى مجمع البحرين؛ فإن هناك من هو أعلم منه، وهو الخضر عليه السلام. وقيل سبب لقاء موسى بالخضر سؤال موسى ربّه أن يدلّه على عالم ليزداد من علمه إلى علم نفسه (كامل وحساني، ٢٠٠٥م، ص ٥٦ـ٥٩).

«**وكان علم الخضر علم معرفة البواطن قد أُوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها. وكان علمُ موسى علمَ الأحكام الفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم**» (القرطبي، ١٩٥٧م، ص ١٦).

«**إنّ شخصية موسى في القصّة هو ابن عمران الرسول النبي، أحد أولي العزم صلى الله عليه وآله على ما وردت به الرواية من طرق الشيعة وأهل السنّة. وقيل: إنه شخص آخر؛ وهذا قول ضعيف لا مردّ له**» (الطباطبائي، ١٩٧٢م، ص ٣٣٨).

الفتى الذي ذكره الله تعالى في القصّة ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ (الكهف ١٨: ٦٠) هو يوشع بن نون، وصيّه؛ وإنّما سمّي "فتى موسى"؛ لأنّه لزمه ليتعلّم منه. وكان يلازمه سفراً وحضراً، وإن كان حُرّاً؛ أو لأنه كان يخدمه (القرطبي، ١٩٥٧م، ص ١١؛ الطباطبائي، ١٩٧٢م، ص ٣٣٨).

ملخّص القصة

بدأ موسى عليه السلام يسافر مع فتاه إلى مجمع البحرين ناوياً هدفاً ما. فلمّا بلغا إلى مجمع البحرين، يتخذ حوتهما ـ وهو طعام السفر ـ سبيلَه في البحر بشكل عجيب. عندما يتجاوزان المكان المحدد ـ أي: مجمع البحرين ـ يحسّ موسى عليه السلام التعب والجوع، ويطلب من فتاه أن يحضر الغداء (الحوت). فما يلبث أن يتذكر الفتى انسرابَ الحوت في البحر حينما كانا مستريحين جنب الصخرة على شاطئ البحر، ويقول لموسى عليه السلام: نسيت أن أذكر لك ما حدث للحوت و﴿قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَينا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنّي نَسيتُ الْحوتَ وَما أَنْسانيهُ إِلاّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبيلَهُ في الْبَحْرِ عَجَباً﴾ (الكهف ١٨: ٦٣). ويردّه موسى عليه السلام بقوله: ﴿... ذلِكَ ما كُنّا نَبْغِ ...﴾ (الكهف ١٨: ٦٤). فيرجعان إلى الموقع نفسه الذي انسرب الحوت. فبعد الوصول إلى المكان المحدّد يجدان عبداً عالماً أعطاه الله علماً من لدنه.

فيطلب موسى عليه السلام منه أن يسمح له اتّباعه حتى يتعلّم منه شيئاً، لكن العالم ـ وهو الخضر عليه السلام ـ يؤكد على أنه لم يستطع معه صبراً. يصرّ موسى عليه السلام على طلبه إلى أن يوافق عليه الخضر عليه السلام شريطة أن لا يسأله عن شيءٍ حتى يحدّث له ذكراً. فينطلقان معاً.

يقوم الخضر عليه السلام طوال السفر بأمور غريبة بدءً من خرق سفينة المساكين، ثمّ قتل الغلام، وأخيراً إقامة الجدار في قرية كان أهلها بُخلاء يأبون ضيافتهما. فلا يستطيع موسى عليه السلام أن يصبر أمام تصرفات الخضر الغريبة، فيعترض عليه. وبسبب ذلك يفترق عنه الخضر، لكنه قبل الفراق يوضّح له حقيقة تصرفاته، وينسب جميع أفعاله إلى إرادة الله، ويؤوّل له سبب أفعاله (الكهف ١٨: ٦٠ـ٨٢).

الأشخاص (Character)

«الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار العامّة. ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ أن انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه؛ إذ يسوق القاصُّ أفكاره وقضاياه العامّة منفصلة عن محيطها الحيوي بل ممثلة في الأشخاص » (هلال، ١٩٧٣م، ص ٥٢٦).

«فالشخصية من المنظور القرآني هي الفعل التأسيسي، الشيء الّذي جعل الأفعال في سياق السرَّد القرآني تنوب عن الشخصية» (مزاري، ٢٠٠١م، ص ٥٥).

أشخاص القصة

توجد في القصّة عدة أشخاص؛ بعضها شخصيات أصلية وبعضها شخصيات فرعيه. كلّ أشخاص القصة ـ ما عدا موسى عليه السلام ـ مجهولين، وهذا من ميزات القصص القرآنية الرئيسية.

يكتفي القرآن في قصصه بذكر بعض صفات الشخص (نقرة، ١٩٧٤م، ص ٣٤٨)، والشخصية القرآنية لم يُظهرها السرد باسمها في أكثر الأحايين، بل صمت عنها ليترك خيال القارئ يتدفّق، ليملأَ الفجوات المسكوت عنها، متأوّلاً ومُسائلاً.

«إنّ ظاهرة غياب أسماء الشخصيات ظاهره قرآنية قبل أن تكون من سمات الرواية الجديدة، وعدم تحديد الشخصيات في القصة القرآنية لا يعيب السَّرد، [و هذا] يوحي إلينا بأنّ أهم شيء في القصّة القرآنية هو العبرة والمغزى الذي تهدف إليه» (مزاري، ٢٠٠١م، ص ٣٧).

شخصية الخضر

البطل الرئيسي الذي تدور الأحداث حوله هو الخضر عليه السلام؛ فاستغنى القرآن بوصفه عن ذكر اسمه في القصة، ويكونُ الخضر عليه السلام شخصية متكاملة وخارقة. **«والشخصية المتكاملة (Round Character) شخصيّة معقدة متعددة الأبعاد، ويصعب التنبؤ بما تفعله، وتكون في الوقت نفسه قادرة على سلوك مقنع ومفاجئ»** (برنس، ٢٠٠٣م، ص ٢٠٢). **«والشخصية الخارقة (Archpersona) شخصية غير عادية، العامل، صاحب دور أساسي في السَّرد»** (المصدر نفسه، ص ٣٠).

«إن الخضر نبي قد خصَّه الله تعالى بالعلوم اللدنّيّة والأسرار النبوية بما لم يطلع عليه موسى عليه السلام» (كامل وحساني، ٢٠٠٥م، ص ٤٠)، ويلعب دور المعلّم الواعي باستعداد الطالب. فطريق تعامله مع موسى عليه السلام دالٌّ على علمه وحلمه معاً. وعلى الرغم من أن موسى عليه السلام لم يمتثل أمره، ونسي شرطه للمصاحبة، لكنّه أتاح لموسى عليه السلام الفرصة للحصول على المعرفة المنشودة. و كلّ ما ذكره حين واجه اعتراضه

على نفسه، ما هو إلاّ تكرار ما قال له في بدءِ اللقاء: ﴿... **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً**﴾ (الكهف ١٨ : ٦٧)؛ فلا يأخذ الخضر عليه عدم استطاعته صبراً، وهو عالم بقدر طاقة موسى عليه السلام ومستوى صبره.

وفي نهاية المطاف فسّر الخضرُ تلك الأفاعيل لموسى عليه السلام، ووضّح له عن حقيقة أمره. ثم قال بعد ذلك كلّه: ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ (الكهف ١٨ : ٨٢)، وكشف الستار عمّا لا يدري موسى عليه السلام حقيقته.

وبعد أن بيّن لها الحقائق أكّد مرّة أخرى على سبب ما قال له بدايةً، وهو عدم طاقته معه صبراً. ترك الخضر المجال للمتعلّم موسى حتى يفكر ويحلّل تلك التصرّفات، واكتفى بذلك المبلغ من المصاحبة لإلقاء الدرس، مؤدّياً دوره كمُعلّم بارع.

وهناك من اعتبر شخصية الخضر في هذه القصة تمثّلاً لبعض الأفعال الخفيّة الإلهيّة (يونغ، ١٣٥٢هـ. ش، ص ٢٧٥ـ٢٧٦).

شخصية موسى عليه السلام

موسى عليه السلام هو الشخصية الوحيدة ذُكر اسمها في القصّة، وهو البطل الرئيسي الثاني، والحاضر من بدء القصّة إلى نهايتها. ويبدو كأنّه شخصٌ عاديّ لا نرى أي إشارة إلى نبوّته في القصّة؛ فلذلك يمكن أن يضع القارئ نفسَه مكانَه في القصّة، بما أنّه شخصية ساذجةٌ، ورُدود فعله أقرب بكثير إلى فعل الإنسان العادي في واقعية الحياة. بناءً على ذلك يمكن تبرير اعتراضاته واستعجاله دون الركون إلى تأنيبه.

على أنّه أسوة حسنة للمتوسّم، بما أنّه مصداق واضح لطالب العلم وسالك الطريق. ترك هو الجاه والمقام، وشقّ النفس على التعلّم، وخفض جناح الذلّ للعالم والزعيم المعنوي. فبينما كان يصرّ على طلب مصاحبته، لم يألُ عن جانب الأدب والاحترام (جنابادي، ١٣٦١هـ. ش، ص ٦١ـ٦٣).

> **فكلامه [موسى عليه السلام] موضوع على التواضع من أوّله إلى آخره. وقد تأدّبَ معه أوّلاً، فلم يورد طلبه منه التعليم في صورة الأمر، بل في صورة الاستفهام، هضماً لنفسه؛ وسمّى مصاحبته اتباعاً منه له. ثم لم يورد التعليم في صورة الاشتراط، بل قال: ﴿... عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾(الكهف ١٨ : ٦٦). ثم عَدّ نفسه متعلّماً، ثمَّ أعظمَ قدر علمه؛ إذ جعله منتسباً إلى مبدء غير معلوم لم يعيّنه باسم أو نعتٍ؛ فقال: «عُلِّمتَ» [الكهف ١٨ : ٦٦]، ولم يقل: عَلِمتَ»** (الطباطبائي، ١٩٧٢م، ص ٣٤٣).

تحكي شخصية موسى عليه السلام أدب المتعلّم؛ وذلك من خلال سياق حواري وصفي بعيد عن الاجتراء والتأنّف والتّعَنْجُه. وهذا أضفى على القصة بعداً فنّيّاً جماليّاً، وصوَّر لنا شخصيته العظيمة.

كان موسى البطل الثاني في القصة، ولكنه لا يمكن عدّه في هذه القصة شخصية متكاملة حسب المفهوم القصصي.

شخصية الفتى

الفتى الذي ذكره الله وأضافه إلى موسى قيل: هو يوشع بن نون وصيّه (الطباطبائي، ١٩٧٢م، ص ٣٣٨؛ القرطبي، ١٩٥٧م، ص ١١؛ ابن برهان، ٢٠٠٧م، ص ١٣٦).

«**إن أهم دور ثانويّ لشخصية الفتى هو الدور الفنّيّ الذي هَيّأه النصّ للفتى؛ من حيث تأثيره على حركة القصّة. إن حركة القصة قد تأثّرت أساساً بسلوك الفتى، ممّا شكّلت انعطافاً فنّيّاً ملحوظاً في الرحلة**» (البستاني، ١٤٠٨هـ، ص ٣٢١)؛ إذ إنّ الفتى هو الذي ذكّر موسى عليه السلام بالمكان الذي جاوزاه، وذلك عندما أحسّ موسى عليه السلام بالجوع، فطالب فتاه بتهيئة الطعام، لكن الفتى تذكّر أن الحوت قد بقي في المكان

الذي استراحا عنده، وتذكر أنّه قد انسرب الحوت من يده. إنّ عملية مشاهدته لانسراب الحوت قد ساهمت في الحركة المذكورة في القصة، مادام الانسراب هو المَعلَم الذي سيدلّ موسى عليه السلام على العالِم (البستاني،١٤٠٨هـ، ص ٣٢٢).

لم يأت في القصة ذكر عن فتى موسى عليهما السلام بعد أن وجدا العالِم، ويبدو أنه انتهى دوره الخاص في هذا الموقف ؛ فإذا هو يغيب ولم يرد عنه ذكرٌ بعدُ. ويحتجّ الطبرسي على [مفاجأة] غيابه ويقول: «**ولم يذكر يوشع؛ لأنه كان تابعاً لموسى، أو قد تأخّر عنهما، وهو الأظهر**» (د ت، ص ١٨٧).

من الممكن أن يعتبر هذا من مفاجئات القصة الكثيرة ؛ ويلي هذا بعد مفاجأة إحياء الحوت واتّخاذ سبيله في البحر عجباً. إذن ـ ورغم دوره الهامّ في مسار القصّة ـ يعتبر الشخصية الثانوية.

إن عنصر المفاجأة من الخصائص الفنية للقصة، ولا تستثني منه القصة القرآنية ؛ ويأتي ذلك في القصص القرآنية بمختلف الأشكال (قطب، د ت، ص ١٤٦، ١٤٨ـ١٥١).

الشخصيات الأخرى

هنالك شخصيات أخرى في القصّة ؛ وهي: المساكين الّذين أعاب الخضر عليه السلام سفينتهم، والملِك الظالم، والغلام المقتول وأبواه، وأهل القرية البخلاء، والغلامان اليتيمان وأبوهما.

ويمكن أن تقسم الشخصيات المذكورة إلى قسمين: الشخصيات السلبية، والشخصيّات الإيجابية. أما الأولى منها فهي: الملك الظالم الذي قد أساء استخدام قدرته بغصب السّفن وأذى النّاس، والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام. وقيل عنه لم يكن بالغاً، أو كان بالغاً ولكن ما قام بعمل يستحقه القصاص كقتل النفس (القرطبي،١٩٧٢م، ص ٢١). وتضاربت الأقوال عنه وعن أهل القرية المتّصفين بالبخل الشديد والامتناع عن الاستضافة في الكتب التفسيرية.

أمّا القسم الثاني (الشخصيات الإيجابية) فهي: أَبَوا الغلام المؤمنان والمولود (أو المولودة) المنتظر/المنتظرة (القرطبي، ١٩٧٢م، ص ٣٧؛ ابن برهان، ٢٠٠٧م، ص ١٤٨ـ١٤٩)، والأب الصالح الذي مات وكان له ولدان، وأراد الله أن يكفل أمورهما كمثوبةٍ لأبيهما الصالح، والمساكين وهم ﴿... **يَعْمَلونَ فِي الْبَحْرِ** ...﴾ (الكهف ١٨، ٨٩) بغية طلب رزق الحلال، ونجّاهم الله بيد الخضر من شرّ الملك الظالم.

ويعدّ الحوت في القصة شخصية حيوانية لها أهمية بالغة، والقارئ يدرك هذا الأمر بعد التوقف عنده والتمعّن فيه. إن الحوت ينهض بمهمّتين مزدوجتين تتداخلان واحدة مع الأخرى، هما: مهمّة الزاد الذي لا مناص من تهيئتهِ لموسى عليه السلام وفتاه، ومهمة السَّرَب وفقدانهما إياه. وصلة هذا السَّرَب بمهّمة الرحلة غامضة ؛ ولذلك يتحمّل الحوتُ في القصّة أهمية فنيه في تأثيرها على رحلة موسى عليه السلام، وفي تطويرها للأحداث. وكان انسرابه علامةً ينبغي أن يقف عندها موسى عليه السلام ؛ لذلك رجع موسى وفتاه إلى الموقع نفسه الذي انسرب الحوت منه بعد أن جاوزاه (البستاني، ١٤٠٨هـ. ق، ص ٣١٤، ٣١٦ـ٣١٨).

الصلة الوثيقة بين شخصيات القصّة واتصال مصير بعضها ببعضٍ تحكي عن حبكة قوية يتمثّل فى الانسجام والترابط والتسلسل. يُقتل الغلام بسبب دفع إيذاءه عن والديه، ولو كان يبقى، لكان في بقاءه مفسدة لأبويه (الهلالي، ١٤٢٨هـ،ص ١٦٢، ١٧٤ـ١٧٥). ويبيّن الخضر سبب قتله: ﴿**وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْياناً وَكُفْراً**﴾ (الكهف ١٨: ٨٠).

وفي موضع آخر يتعلّق مصير الغلامين بوالدهما الصالح؛ حين قام الخضر بتحّمل مسؤولية حمايتهما. وسبب ذلك يعود إلى شخصية الأب الصالح المؤمن والملتزم بالشريعة (الهلالي،١٤٢٨هـ، ص ١٧٤). إذن يثبتُ دور هامّ في القصّة وأَحداثها لأبوين المؤمنَين والأب الصالح. هؤلاء الأشخاص ـ ورغم عدم تمثّلهم المادي ـ يقعون على مركز الأحداث، ويساهمون مساهمةً فاعلةً في السرد.

هذا الاتصال الوثيق بين شخصيات القصة ومصائرها منح القصة انسجاماً ووحدةً عضوية، ورفع القصة إلى مستوىً عالٍ من الفن القصصي الملتزم، ويوحي إلى المتلقي النظرة التوحيدية وراء الأحداث والأفعال، ويصوّر خيطاً يبدأ من الغيب المجهول، ويمتدّ إلى أن يصل إلى العالم الظاهر، حتى يمكن مشاهدته من خلال أحداث القصة.

عنصر الزمن في القصة

لعنصر الزمن أثر في حبكة القصّة. فهناك الترتيب التتابعي الطبيعي للأحداث؛ كما يقال بالإنجليزية: (Chronological order)، وهو ما نجده في أكثر الروايات والقصص التقليدية. وهناك الارتداد من الحاضر إلى الماضي أو طريقة التداعي الحُرّ التي لا يلجأُ الكاتب فيها إلى الترتيب الزمني المعروف (السيد، ٢٠٠٥م، ص ٤٧).

«**يمثل الزمن عنصراً مهماً وفاعلاً في الفنون السردية بعامة، ولا يوجد سردٌ دون فضاء زماني يحتويه**» (إبراهيم، ٢٠٠٨م، ص ١٤٢). ويمكن أن يحدّد الزمن الروائي في ثلاثة أشكال أساسية: «**١. البناء التتابعي للزمن؛ ٢. البناء التداخلي الجدلي للزمن؛ ٣. البناء المتشظي للزمن**» (القصراوي، ٢٠٠٤م، ص ٦٤).

الزمن في القصة القرآنية

اهتمّ القرآن الكريم برصد الزمان في آياته الكريمة، نظراً لما لهذا العنصر من أهمية كبرى في دفع الأحداث، ولما له من قيمة عظيمة ودور رئيسي في حركة الحياة. وقد وظّفت القصة القرآنية ـ عن طريق عنصر الزمان ـ حشداً هائلاً من الإيحاءات والأجواء النفسيّة المعبّرة. وتعامل القرآن مع الزمن لا يقتصر على الزمن التقدمي، بل هناك نوع من التشتّت [التشظي] في زمن القصص القرآنية (حسن، ٢٠٠٧م، ص ١٦٦).

الزمن في القصة

كان الزمن في القصة مبهماً وغير محدّد، وهذا شأن كثير من القصص القرآنية التي لا ترمز إلى تاريخ خاص بالضبط. إن الزمن في هذه القصة زمن تتابعي وطبيعي، ولكنه لا يقتصر على الزمن التتابعي نفسه، بل قد توجد استرجاعات في القصة.

للمكوِّن الزمن في هذه القصة أهمية خاصة؛ وذلك بسبب أنها يشعّ بعض القضايا في القصة، كإثارة انتباه القارئ، ولفت نظره إلى الأمور الهامة التي تنشدها القصة. وسيأتي بالمناسبة دور الحديث عنها.

تبدأ قصة موسى والخضر عليهما السلام من خلال حوار بين موسى وفتاه، ويتضمّن هذا الحوار مفهوماً زمنيّاً مبهماً: ﴿**إِذْ قالَ موسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً**﴾ (الكهف ١٨: ٦٠). هذه البداية القصصية تنطوي على جملة من أسرار الجمال الفنّيّ المتصل ببناء القصة؛ إذ فيها دلالة زمنية، ويدري القارئ مِن عبارة «لا أبرح» و«أمضي حقباً» أنّ القائل ـ وهو موسى عليه السلام ـ قَد تأهّب نفسه لأمر ما، وعزم على سفر طويل، بغية الوصول إلى منطقة خاصة. ومن الواضح أن شخصاً كموسى عليه السلام

لا يمضي وقتاً طويلاً للحصول على شيءٍ تافهٍ أو أمر صغير. فهذه الدلالة الزمنية الواضحة توحي إلى القارئ القضايا المتوقعة الهامّة التي ستكشف له فيما بعد.

الاسترجاع (Analepsis) في القصة

«إنّ الاسترجاع مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة، واستعادة لواقعة أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة. وإكمال الاسترجاع أو العودة يملأ الثغرات السابقة التي نتجت من الحذف أو الِغفال [Ellipsis] في السرد» (برنس، ٢٠٠٣م، ص ٢٥).

وهناك في الآية ﴿**قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾ (الكهف ١٨ : ٦٣) استرجاع ومفارقة زمنية، واستعادة لواقعةٍ بلوغهما مجمعَ البحرين ونسيانِ الحوت جنب الصّخرة.

والآية المذكورة أكملت الآية ماقبل السابقة : ﴿**فَلَمّا بَلَغا مَجْمَعَ بَينهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً**﴾ (الكهف ١٨ : ٦١). وهكذا كشفت الآية الـ٦٣عمّا قبلها ـ وهي الآية الـ٦١ ـ غطاءَها، وملأت الثغرة التي كانت فيها. وهذا إكمال الاسترجاع.

تحديد الزمن في القصة وتوظيفه

بعد أن لقي موسى الخضر عليه السلام ، وَعَدهُ بأن لا يعصي أمره : ﴿**قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللّهُ صابراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾ (الكهف ١٨ : ٦٩). وتدلّ الآية أن موسى علّقت وعده بالمستقبل ـ وذلك بواسطة حرف «سين» ـ وشرط صبره على مشيّة الله. فردَّ عليه الخضر عليه السلام : ﴿**قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً**﴾ (الكهف ١٨ : ٧٠).

يدلُّ القسم الأوّل من هذه الآية ـ وهو الشرط وجوابه ـ على الزمن الحاضر الاستمراري ؛ وذلك حسب مقتضى الكلام. ثم يمتدّ إلى زمنٍ غير معلوم في المستقبل تدلّ عليه «حتى» المذكورة. فلا شك أن تسلسل الأحداث في القصة تطبّق خيط الزمن الحقيقي الذي وقعت فيه الأحداث.

والدّقةُ التعبيرية ملحوظة في بعض الآيات التي تشير إلى موقف موسى أمام الخضر، واعتذاره منه بعد نقض الوعد ؛ حيث ﴿**قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً**﴾ و﴿**قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً**﴾ (الكهف ١٨ : ٧٣ و٧٦). وكذلك تكرار الآية : ﴿**قالَ إِنَّكَ لَنْ تَستَطِيعَ مَعِي صَبْراً**﴾ (الكهف ١٨ : ٦٧) ؛ واضافة بعض الكلمات أو الحروف إليها خلال السرد بغية التذكير والتأكيد (را: الكهف ١٨ : ٧٢، ٧٥و ٨٢) تفضي بنا إلى الحكم بتتابع سرد الأحداث وفق ترتيب زمنها الواقعي.

وإضافة إلى ما ذكرنا، فإنّ أداة «لن» توحي إلى عدم استطاعة موسى عليه السلام صبراً معه على الدوام، كما ترمز إلى علم الخضر عليه السلام الباطني، وقوله الصدق الذي قد تحقق في القصة.

بناءً على زمن التقاء موسى بالخضر عليه السلام ، يمكن أن يحدّد الزمن فى القصة على ما يلي :

زمن بداية السفر ورحلة موسى عليه السلام وفتاه إلى أن يدرك موسى عليه السلام العلامة التي تهديه إلى المكان المحدَّد للّقاء ؛ والزمن الذي يلتقي موسى بالخضر عليه السلام ويجري حوارٌ بينهما ؛ والزمن الكلّيّ المبهم، وهو الزمن الذي انطلقا معاً في الأمكنة والأجواء المختلفة ووقعت الأحداث الثلاثة.

زمن السرد والزمن الواقعي في القصة وترابط الزمن والأحداث

«**إن السرد (Narrative) هو الحديث أو الإخبار لواحد أو أكثر من واقعة حقيقية أو خيالية من قِبل واحد أو اثنين أو أكثر من الساردين (Narrator). زمن السرد هو الزمن الذي يقدم من خلاله الساردُ القصةَ، ولا يكون بالضرورة مطابقاً لزمن القصة**» (بوعزة، ٢٠١٠م، ص ٨٧)، أو الزمن الواقعي للأحداث في القصة. لا يدري المتلقي كم مدةً جرى لموسى والخضر عليهما السلام إلى أن يأتي حين الفراق؟ فتوجد قفزات زمنية عديدة في القصة، ولا يمكن قياس زمن السرد على الزمن الحقيقي؛ لأن زمن السرد أقل بكثير من الزمن الواقعي الذي لا ندري طول مدّته بالضبط.

إنّ أحداث القصة على طولها الظاهر فيها اختصار في الزمان والمكان والحدث، والعبارة التي تكرّرت في الآيات التالية: ﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً**﴾ و﴿**انْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً**﴾ و﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً**﴾ (الكهف ١٨: ٧١، ٧٤ و٧٧) عملتْ على الربط بين أحداث القصّة وتسلسلها، علماً بأن بين كل مرحلة وأخرى قد مرّت أحداث عبر فترة زمنيّة مبهمة (عبدالرحمن، ٢٠٠٦م، ص ١١٣).

تتصل أحداث القصّة بأزمنة متباينة: فخرْقُ سفينة المساكين يتعلّق بالزمن الحاضر الاستمراري والمستقبل وفقاً لجوّ القصّة؛ لأن الملك الظالم ما اغتصب سفينتهم آنئذٍ، وإنّهم سيقدرون بعد رأب السفينة أن يواصلوا عملهم في البحر طالبين الرزق الحلال. وكان قتلُ الغلام متصلاً بالمستقبل؛ لأن الله تعالى أتمّ نعمته على والديه بدفع سوءه عنهما، وإعطاءهما بدلاً خيراً منه في المستقبل: ﴿**وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً**﴾ (الكهف ١٨: ٨١ـ٨٢). ففي الروايات إشارات كثيرة إلى الخلف الصالح لهما (الطباطبائي، ١٩٧٢م، ص ٣٥٧).

وسبب إقامة الجدار يرجع إلى الزمن الماضي القريب أو البعيد، وهو يرتبط بالأب الصالح الذي توفّي. وأشارت إليه الآية: ﴿**وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً**﴾ (الكهف ١٨: ٨٢). «**وظاهر اللفظ أنه والدهما دنية (الأب الأقرب). وقيل: هو الأب السابع، قاله جعفر بن محمد [عليه السلام]**» (القرطبي، ١٩٥٧م، ص ٣٨).

دلالة المفردات الزمنية ورمزيتها

بعض المفردات في القصة تحمل في طيّها إشارات زمنية خاصة. منها: مفردة «غداءنا» في الآية ﴿**آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً**﴾ (الكهف ١٨: ٦٢). تدلّ هذه المفردة على طول مدّة تجاوزهما عن مجمع البحرين (الطبرسي، د ت، ص ١٨٠)، وإنّها ترمز إلى زمن اللّقاء الذي قَرُبَ. وكلمة «الغداء» إضافةً إلى دلالته على وجبة الطعام في النهار تكشف عن رمزيّتها؛ لأنّ ظاهرة غياب الحوت ـ وهو وجبة الغداء ـ بالنسبة إلى موسى عليه السلام كانت علامةً لموعد اللّقاء؛ حيث يقول بعد اطلاعه على غياب الحوت: ﴿**قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ...**﴾ (الكهف ١٨: ٦٤)، ويرجعان إلى الوراء للوصول إلى المطلوب.

وحسب ما يبدو، فإنّ كلمة «وراء» في الآية ﴿**وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ**﴾ (الكهف ١٨: ٧٩) تحمل فيها دلالة زمانية ومكانية إلى حدّ سواء، وفيها إبهام وغموض، وهي من الأضداد (القرطبي، ١٩٥٧م، ص ٣٥؛ ابن برهان، ٢٠٠٧م، ص ٣٤). وينسجم هذا الإبهام والغموض مع ضبابية الأحداث وجوّ القصة التي مليئة بالأسرار والرموز.

النتيجة

قد أُثبت الدور الهام لبطل القصة، الخضر عليه السلام، وهو الشخصية المتكاملة والخارقة في القصة، ولم يُذكر اسمه في القصة ؛ لأنّ الأمر الأساسي بالنسبة إليه هو سماته الخاصة التي ميّزتْه عن سائر الشخصيات. والبطل الثاني موسى عليه السلام . هو نموذج رجل يطلب العلم ويحبّ العالِم، ويشقّ النفس لأجل طلبه.

إنّ الشخصيات الأخرى في القصة لها دور ثانوي، والأمر المتصل بهؤلاء الأشخاص هو أفعالهم وأوصافهم لا أسماؤهم وملامحهم الجسدية ؛ فلذلك ضرب القرآن عن ذكرها صفْحاً.

واتضح لنا أن هناك صلة وثيقة بين مصير شخصيات القصة عامّة، ومصير الأبناء والوالدين خاصة ؛ وهذا الأمر يحدو بنا إلى الحكم بأنّ القصة تحظى بنظام علائقي وشيج، وإنّ جميع أحداثها تجري في نظام سببي لا مكانَ للصدفة فيها. وإذا جاءت مفاجئات في القصة، فلها أسبابها الخاصّة، وإن لم نُحط بجميع مواضعها خُبْراً.

إن الآيات المتكررة والتي تحكي عن موقف موسى عليه السلام تجاه الخضر عليه السلام تأتي كدلالة تدلّنا على العلم بتعاقبية زمن القصة ومطابقتها الترتيبَ الزمنيَّ الواقعيَّ للأحداث.

ومن اللافت للنظر أن القصة ترسم الأغراض الدينية والتربوية والتعلمية دون اللجوء إلى الخطاب المباشر أو اتخاذ الموقف الانحيازي، وهذا أهمّ ما وصلت إليه هذه الدراسة المتواضعة.

❋❋❋

المصادر والمراجع

أ. العربية

القرآن الكريم

١. إبراهيم، إبراهيم عبدالمنعم. (٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ). ***بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، قصة يوسف نموذجاً***. (ط ١). القاهرة: مكتبة الآداب.

٢. ابن برهان، محمد. (٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ). ***الدّرّ النّظيم في أخبار موسى الكليم***. (ط ١). بيروت: دار الكتب العلمية.

٣. ابن منظور، محمد بن مكرّم. (١٩٩٢م). ***لسان العرب***. بيروت: دار صادر.

٤. برنس، جرالد. (٢٠٠٣م). ***المصطلح السردي***. (ترجمة عابد خزاندار). (ط ١). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

٥. البستاني، محمود. (١٤٠٨هـ). ***دراسات فنية في قصص القرآن***. (ط ١). مشهد: الآستانة الرضوّية المقدسّة.

٦. بو عزّة، محمد. (٢٠١٠م). ***تحليل النص السردى***. (ط ١). الرباط: دار الأمان.

٧. حسن، أحمد عطا. (٢٠٠٧م). ***البناء الفنّي في القصة القرآنية***. (ط ١). القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

٨. السيد، وجيه يعقوب. (٢٠٠٥م/١٤٢٥هـ). ***الرواية المصرية في ضوء المناهج النقدية الحديثة***. (ط ١). القاهرة: مكتبه الآداب.

٩. الطباطبائي، سيدمحمدحسين. (١٩٧٢م/١٣٩٢هـ). ***الميزان في تفسير القرآن***. (ج ١٣). بيروت: موسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٠. الطبرسي، الفضل بن حسن. (د ت). ***مجمع البيان في تفسير القرآن***. (ج ١٣) بيروت: دار ومكتبة الحياة.

١١. عبدالباقي، محمد فؤاد. (د ت). ***المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم***. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٢. عبدالرحمن، مروان محمد. (٢٠٠٦م). ***دراسة أسلوبية في سورة الكهف***. (رسالة الماجستير بإشراف د. خليل عودة، جامعة النجاح الوطنية، كلية دراسات العليا، قسم اللغة العربية وآدابها).

١٣. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (٢٠٠٥م). ***القاموس المحيط*** (تصحيح يوسف الشيخ محمّد البقاعي). بيروت: دار الفكر.

١٤. القرطبي، محمد بن أحمد. (١٩٥٧م/١٣٧٧هـ). ***الجامع لأحكام القرآن***. تحقيق أبو إبراهيم أطفيش. (ج ١١). (ط ٢). القاهرة: دار الكتب المصرية.

١٥. القصراوي، مها حسن. (٢٠٠٤م). ***الزمن في الرواية العربية***. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٦. قطب، سيد. (د ت). ***التصوير الفنّي في القرآن***. (ط ٢). القاهرة: دار الشروق.

١٧. كامل، حيدر، ومحمد شراد حساني. (٢٠٠٥م). ***الخضر بين الأنبياء، العبد الصالح***. (ط ١) بيروت: دار ومكتبة الهلال؛ دار البحار.

١٨. نقرة، تهامي. (١٩٧٤م). ***سيكولوجية القصة في القرآن***. تونس: الشركة التونسية للتوزيع.

١٩. هلال، محمد غنيمي. (١٩٧٣م). ***النقد الأدبي الحديث***. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٢٠. هلالي، عماد. (١٤٢٨هـ/١٣٦٨هـ. ش). ***العبد العالم: المنهج والحياة***. (ط ١). قم: مؤسسة بوستان كتاب.

٢١. مزاري، شارف. (٢٠٠١م). ***مستويات السرد الإعجازي في القصّة القرآنية***. دمشق: اتحاد الكتّاب العرب.

٢٢. مطاوع، سعيد عطية. (٢٠٠٦م). ***الإعجاز القصصي في القرآن***. (ط ١). القاهرة: دار الآفاق العربية.

ب. الفارسية

٢٣. گنابادي، سلطانحسين تابنده (١٤٠٢هـ/١٣٦١ هـ. ش). ***قرآن مجيد و سه داستان اسرارآميز عرفاني***. (چاپ ٢). تهران: سراي سينا.

٢٤. ميرصادقي، جمال. (١٣٨٦ هـ. ش). ***ادبيات داستاني***. (چاپ ٥). تهران: انتشارات سخن.

٢٥. يونگ، كارل گوستاو. (١٣٥٢هـ ش). ***انسان و سمبول هايش***. تهران: اميركبير.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی